الدرس التاسع/ تجريد التوحيد المفيد للمقريزي

قراءة الطالب: الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد: قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

" والناس في هذا الباب- أعنى زيارة القبور -ثلاثة أقسام: قوم يزورون الموتى فيدعون لهم وهذه هى الزيارة الشرعية، وقوم يزورونهم يدعون بهم، وهؤلاء هم المشركون وجهلة العوام والطغام من غلاتهم، وقوم يزورونهم فيدعونهم أنفسهم، وقد قال النبى ﷺ "اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد"، وهؤلاء هم المشركون في الربوبية.

الشيخ -حفظه الله-: إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله أما بعد:

الأمور تتضح بأضدادها، فتكلم المصنف -رحمه الله- عن التوحيد، وهذا الكتاب خاص بتوحيد الألوهية، وتكلم عن توحيد الربوبية والألوهية، وبعد التوحيد تتضح الأمور بالكلام المفصَّل عن الشرك، فالتوحيد و الشرك أمران متقابلان متضادان لا يجتمعان، فمتى وضح التوحيد فهمتَ الشرك وأنواعه، فإن التوحيد والشرك يوضحان لك الأمر على وجه التمام والكمال.

المصنف بدأ يتكلم عن الشرك والشرك قسَّمه إلى قسمين كبيرين وهو إلحاد في الله ﷻ وآياته وأسمائه وصفاته، ومنهم من ينكر وجود الرب ﷻ، وهذا الشرك الذي ما بعده شرك، وبعضهم يثبت وجود ذاتاً لله سبحانه، لكن دون أن يثبت شيئًا من الأسماء أو الصفات، حتى أن بعضهم

جعل هذا مدخلاً للإلحاد فقال: بما أن كل صفة مشتركة بين الله وخلقه، -فعلى التنزيه زعماً- لا نثبتها، فقالوا: الله موجود والبشر موجودون، فالله ليس موجود، وغفلوا على أن التنزيه التام هو إثبات ما ورد في كتاب الله ﷻ، وليس من التنزيه أن تنفي صفة أثبتها الله لنفسه، أو أثبتها الأنبياء لربهم، أو أثبتها رسوله محمد ﷺ لله سبحانه: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، لما نزّه الله نفسه قال: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ}، لأن أنبياء الله هم أعلم الناس بالله سبحانه، فسلّم عليهم لأنهم لا يثبتون إلى ربهم ﷻ إلا ما يستحق، وتوعَّد الله تعالى الذين يلحدون قال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}، انتقل المصنف للنوع الثاني من الشرك، وأخَّر النوع الأول، وسيأتينا الكلام عليه مفصَّلا، ثم ذكر الشرك في الأفعال المخلوقة التي تخص ألوهية الله ﷻ، وذكر هذا النوع من الشرك، وذكر أن منه الشرك الأكبر الذي يخرج من الملة، والشرك الأصغر، وقسَّمه إلى قسمين: شرك الأقوال، فالناس في زمن رسول الله ﷺ كانوا حديثي عهد بجاهلية، فكان يجري على ألسنتهم مالا يريدون، وفي ذلك شرك كالحلف، وأكثر حَلِف العرب قبل بعثة النبي ﷺ بآبائهم، وكانوا يحلفون أيضا بالكعبة، وسيأتي ما يدل على ذلك فيما بعد إن شاء الله، ومن الشرك الأصغر: شرك النوايا، شرك الإرادات، الرياء الذي لا تصفي العبادة لصاحبها إلا أن يسمِّعها ويرائي فيها، فذكر أيضا هذا النوع من الشرك وبدأ بالكلام عن الشرك بالتدريج، وآخر ما وصلنا إليه في الدرس الماضي الصلاة في القبور، وإلى القبور، وعلى القبور، وقلنا: أجمعت كلمة المعتبرين من العلماء بناء على الأدلة المستفيضة الكثيرة على حرمة ذلك، لم يفارق في ذلك عالم معتبر، وإنما الخلاف – وهذه مسألة مهمة ينبغي أن تنتبهوا إليها- المعتبر ليس في الصلاة في المسجد الذي فيه قبر، وإنما الخلاف هل تبطل الصلاة بذلك أم لا، وذكرنا استرسالًا متى يقتضي

النهي الفساد؟، متى تكون العبادة باطلة؟ إذا ارتكبنا النهي إلى آخر ما ذكرنا في الدرس الماضي، والعلماء اختلفوا في ذلك على أربعة أقوال، وسردنا الأقوال الأربعة وذكرنا أن الراجح منها: أن النهي إن كان في حق الله ﷻ فهو يقتضي الفساد، وأما إن كان في حق العبد فهو لا يقتضي الفساد، هذا القول عكَّر عليه بعض العلماء، كالعلائي، فقال:" حق الله وحق العبد أمران متداخلان"، الزنى حق لله أم حق للعبد؟ السرقة؟ الحقوق متداخلة فقالوا:"كيف نميز بين حق الله وحق العبد، فأجبنا على هذا الاعتراض بما يقوي ما قلناه: أن حق الله تعالى لا يقبل المسامحة، وحق العبد يقبل المسامحة، فكل حق يجوز للعبد أن يسامح فيه فهو مرادنا بحق العبد، وكل حق لا تجوز فيه المسامحة فهو حق الله تعالى فهكذا نميز بين حق الله وحق العباد مع الاعتراف بالتداخل ولكن هذا هو ضابط التمييز.

الشرك من أشد المعاصي، وجميع أنواع الشرك هي فوق الكبائر، {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ۞ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}، فالشرك منفي في جميع الأديان، وجميع الأنبياء حاربوا الشرك بجميع ألوانه، وما بعث الله النبيين إلا بتحقيق توحيد الربوبية والألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وسبقت الأدلة في بيان ذلك، فالأنبياء جميعاً جاؤوا لمحاربة الشرك، ولكن نبينا محمد ﷺ وشريعتنا حمت التوحيد بقطع العوائق وسداً للذرائع التي توصل الناس بالشرك، وكان ذلك على وجه بيّن، وتعرض المصنف كما يأتي معنا بعد قليل بذلك.

انتقل المصنف من الكلام عن الصلاة عند القبور، على الكلام على زيارة الموتى، والكلام على زيارة الموتى قسَّمها المصنف إلى ثلاثة أقسام وهي على التحقيق أربعة أقسام، فيضاف قسم للأقسام الثلاثة المذكورة عند المصنف -رحمه الله تعالى-، وإن أردت التفصيل في موضوع زيارة القبور لاحتجت لعدة محاضرات، ولا سيما المقبور وحاله بعد دفنه، وهل له صلة بالأحياء أم لا؟

وكذلك حياة الأنبياء عليهم وعلى نبينا ﷺ الصلاة والسلام، ما هي ماهيتها؟ وما طبيعتها؟ فثبت أن النبي ﷺ قال: "الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون" وثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ رأى موسى عليه السلام وهو يلبّي ويطوف بالبيت، فالأنبياء لهم حياة، وهذه الحياة خاصة بهم، وأجمع أهل العلم أن الأنبياء خير من الشهداء، والشهداء وصفهم الله تعالى بقوله: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، فالأنبياء خير من الشهداء، والشهداء أحياء لكن أحياء أين؟ عند ربهم، أرواحهم في حواصل طيور خُضر تعلق من ثمر الجنة، أرواح المؤمنين تختلف على حسب أعمالهم، وثبت أن النبي ﷺ قال في صنف من المؤمنين: "أرواحهم في جوف طير في الجنة"، بعض المؤمنين غير المجاهدين أرواحهم في الجوف، والشهداء أرواحهم في الحواصل، فنعيمهم أتم وأكمل وأظهر وأقوى من نعيم سائر المؤمنين، ولكن الله قال: {أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ} فنحن لا ندري! هي حياة خاصة بهم، فالعقل لا يمكن أن يصول ولا أن يجول في حقيقة هذه الحياة إلا بخبر، إن ذلك من الغيب، والعقل استقلالاً لا يمكن أن يعرف ذلك إلا إن تمكن العقل من لقاء بعض الأموات ثم يعودون للحياة، فحينئذ يكون إخبارهم عن واقع وأما دون ذلك فلا يمكن للعقل استقلالاً أن يتكلم عن هذا الأمر إلا بنقل، والنقل معدوم، ولكن العقول تشعبت وأخذت مذاهبَ عديدةً، أردؤها وأقبحها وأسوؤها المذهب الذي يقول: "النبوة عرَض" ومحمد ﷺ وسائر الأنبياء ذوات، وبعد الموت انقطع العرَض عن الذوات، العرض: اللون، والرائحة، والأشياء التي ليست لها محل إلا في الذوات، فقالوا: بعد وفاة الأنبياء انقطعت النبوة عن الأموات، فالأنبياء كانوا أنبياء، وهم في قبورهم ليسوا أنبياء، وهذا مذهب قبيح، وناقشه ابن حزم وطوّل فيه، وهذا تضييق، والصواب في مثل هذه الأمور بين الجمود والجحود، فلا نجمد ولا نجحد، ونعطي أنبياء الله تعالى حقهم، ونعطي الأولياء حقهم، ومن المذاهب التي توسعت ولها صلة بالمبحث كما سيأتي بعد قليل، أن الأموات وعلى رأسهم الأنبياء، وهذا كثير مذكور في مناقب الأولياء في زعم المتأخرين، يعتقدون أن هؤلاء الأولياء بعد وفاتهم لهم من القوة ما ليست لهم في

حياتهم، ولهم من القدرة على إنقاذ كل هالك، وإنقاذ كل غريق، ولهم استطاعة في أن يفعلوا ما لا يخطر في بال، ولو نظرت إلى مناقب كل طريقة من الطرق، كشيخ الطريقة وقرأت في حياته، وفصَّلت في حياته، لظننت أنهم يتكلمون عن الله !!، ولا يتكلمون عن الخلق وقد فعلتُ وكتبتُ أكثر من (2000) صفحة في تتبُّع هذه المسألة، وسأطبع بإذن الله تعالى الكلام عن حياة البرزخ، ولعلي في هذه المناسبة أبدأ أنشر على حسابي في (تويتر) في بعض ما أريد، حتى تنظرون فيه وتتوسعون، لأن الكلام كما ذكرت كثير، لكن بعض الناس له كتاب في إثبات أن محمداً ﷺ لا يخلو منه زمان ولا مكان وهذا غلو!، وهذا الكتاب مطبوع قديماً وهذا خطر، حياة البرزخ اسمها برزخ، بيننا وبينها حاجب لا يمكن أن نعرفها، ولا يجوز لنا أن نتدخل فيها، والله ﷻ قال: {أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ}، وما جاءنا خبر فيه تفصيل في حياة البرزخ، نعم أخبرنا النبي ﷺ أن الأموات فيما بينهم يتزاورون، "أحسنوا كفن موتاكم فإنهم يتزاورون فيما بينهم" الأموات عالم خاص، لا نعرف عنه شيء، وأخبرنا ﷺ أن "من صلى عليّ فإن الله وكَّل ملَكاً يخبرني من صلى عليّ"، النبي ما له قدرة على أن يسمع، لما تقول أنت: "صلى الله على نبينا محمد" هناك مَلَك أسمع النبي ﷺ الآن ماذا نقول، هذا الذي نؤمن به بناء على الحديث الصحيح، ومن الخطأ الشنيع والجهل الظاهر عند الناس، لما تذهب للمدينة النبوية ويقول لك "سلّم لي على النبي" قل: صلى الله على نبينا محمد والملك يوصل له السلام ، لا تقول لأحد سلم لي على النبي ﷺ، زُرت في رحلة من الرحلات بناء على السنة أهل أُحد، وجدت مجموعة من الإخوة يعرفوني، فبعضهم تبسط معي بالكلام، أنا لا أعرفه، فجاء بعرائض وأوراق يكتبها المسلمون في كل مكان في البسيطة، الذين يأتون للعمرة من كل مكان، فبعضهم يطلب من أهل أُحد الولد، وبعضهم يطلب له أن يردّ عليه من ضاع أو من غاب، وبعضهم يطلب له أن يحيي له بعض الموتى، فدعاء الأموات أقسام، والآن بعد البيان الذي ذكرت، تبيّن لنا أن دعاء الأموات قائم على المعتقد في الأموات، ما هو معتقدك في الأموات، فإن كنت صاحب العقيدة التي نوَّهت بها وأشرت إليها، واعتقدت أن

هؤلاء الأنبياء لهم قدرة، ولهم طاقة، ولهم ولهم..، فأنت تتوجه إليهم في الدعاء كما تتوجه إلى الله ﷻ بأن يقضي حاجاتك، وتسألهم وهم أموات، ولذا ذكر المؤلف -رحمه الله تعالى- الدعاء للأموات على أنحاء وضروب، انتبه ! الدعاء عبادة، الله ﷻ قال: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}، تأمل الآية، قال النبي ﷺ كما ثبت في جامع الترمذي قال: "الدعاء عبادة" من أين أخذ النبي هذا؟ من الآية ! الدعاء أظهر عبادة، وأبرك عبادة وأحسن عبادة، وهي التي يظهر حاجة الضعيف والفقير من كل الوجوه لله الغني من كل الوجوه، أكبر مظهر لضعف الإنسان وحاجته وعبادته لربه ﷻ هو الدعاء، فالدعاء عبادة، احفظ معي القاعدة هذه ! "كل عبادة لله ﷻ خاصة به فإن صُرفت للمخلوق فهي شرك"، وهذا نوع من أنواع التوحيد، "فكل عبادة يحبها الله ويرضاها وشرعها الله في كتابه، أو شرعها على لسان رسوله ﷺ هذه خاصة به، فإن صُرفت إلى غيره، فهذا شرك، ومن بين ذلك الدعاء، دعاء الأحياء ودعاء الأموات، نعم لك أن تتوجه إلى مخلوق بطلب المساعدة فيما يقدر عليه، فالإنسان مدني بطبعه، بحاجة إلى إخوانه، بحاجة للناس، لكن فيما يقدرون عليه، أن تتوجه إلى مخلوق فيما لا يقدر عليه، وأن تسأله وتتوجه إليه بذل وانكسار وخضوع، هذه عبادة فيها شرك، تطلب من المخلوق ما لا يقدر عليه بذل وانكسار، فهذه عبادة خاصة بالله ﷻ.

قال: "والناس في زيارة القبور ثلاثة أقسام، القسم الأول: يزورون الموتى" الحي يزور الميت ويدعو له، وهكذا فعل النبي ﷺ، وهكذا حثّنا وعلّل ذلك بقوله: "فإنها تذكر بالآخرة"، والنبي ﷺ فعل ذلك، وثبت معنا من قريب في آخر كتاب الجنائز لشرحنا لصحيح مسلم، كيف أن النبي زار البقيع في غلس -قبل الفجر، في الليل- ورفع يديه ودعا ثلاث مرات، وطَوّل، ورجحنا عند شرحنا للأحاديث أن هذه الحادثة من رسول الله ﷺ تكررت أكثر من مرة، فالدعاء للأموات بالرحمة لهم وأن تتعظ بهم، وأنك ستموت مثلهم، وأن تحسب حسابا لموتك، وأن تسأل ربك أن يرحمك، فإن أكثرت من الدعاء للأموات يسَّر الله لك من يدعو لك، هذا مشروع ومحبوب عند

الله ﷻ، هناك نوع ثاني لم يذكره المصنف: أن تزور القبور لتدعو لنفسك، وأن تعتقد أن دعاؤك عند القبور مستجاب، بخلاف دعائك في بيت الله، أو وأنت ساجد، أو أن الله يستجيب لك عند القبر ما لا يستجيبه في التهجد، وفي المسجد وما شابه، فهذا نوع من الدعاء بِدعي، وليس فيه شرك، هذا تصور خطأ، استجابة الدعاء شرعي مذكور في النصوص، وحدد الشرع أوقاتاً وأماكن الاستجابة، وليس منها القبور، وما زار أحد من الصحابة والتابعين ولا نبينا ﷺ القبور ليدعوا لأنفسهم، علّمنا النبي أن ندعوا للأموات، فأن تزور القبور وأنت تعتقد إن دعوت الله عند القبر، فهذا الدعاء أقرب للاستجابة لدعائك وأنت في الأماكن أو الأوقات المستجابة هذا دعاء بدعي وليس بشرك، هنالك نوعان من الدعاء في تقسيم المصنف –رحمه الله –: صنف شرك الربوبية ليس الألوهية، ولو زدت فقلت ربوبية وألوهية لأصبت، متى يكون الدعاء للأموات شرك الربوبية؟ أن تجعل المقبور رباً لك، وأن تتوجه إليه وتدعوه هو، تقول له: اغفر لي يا فلان يا سيدي فلان اغفر لي، ارحمني، جعلته رباً، مع أنك أشركت بالعبادة فالدعاء عبادة، متى يكون الدعاء عند القبور أو دعاء المقبورين فيه شرك ألوهية ؟ عبارة المصنف: "وقوم يزورونهم – أي الأموات– يدعون به" أي يتخذون الأموات وسيلة إلى الله يتقربون إليهم، ويعبدونهم لأجل أن تقربهم إلى الله ﷻ ، "وقوم يزورونه يدعون بهم" فقال المصنف: " وهؤلاء هم المشركون وجهلة العوام والطغام من غلاتهم"، الطغام: الأراذل والأوغاد في العربية، ومفردها طغامة للمذكر والمؤنث، "يدعون بهم": هم يسألونهم ليسألوا الله لهم، لا يرجعون إلى الله مباشرة، وإنما يسألون هؤلاء الأموات لأنهم يعتقدون أن هؤلاء الأموات قادرون على كل شيء، وأنهم بعد وفاتهم ليسوا كسائر الناس، إنما يعتقدون أن لهم مقدرة ليست لأحد، فيسألونهم، لذا بعض الفسقة والفجرة إذا قلت له احلف بالله يقول: جاء الفرج ويحلف كذباً ولا يخاف، وأما هؤلاء يخافون أن يحلفون بهم لأنهم يحبونهم كحب الله، بل لعلهم يخافون منهم أكثر من خوفهم من الله، وهذا أمر مشترك بين بعض الغلاة من أهل السنة وبين الشيعة، غلاة أهل السنة مع الشيعة متشابهون، والكلام في هذا الباب طويل

ولست الآن بصدد التعرض له، الشيعة يقولون عن العباس أخي الحسين بن علي بن أبي طالب: "العباس رجل صاحب رد ساخن أي إذا حلفت به كذب، انتقم منك"، هو لا يعتقد حياته فقط، بل يعتقد أنه يقدر على جميع الخلق، ينتقم من كل من يحلف به كاذباً ولو كانوا ألوف مبثوثين في الدنيا كلها، كما نعتقد في الله ﷻ، نعتقد أن الله يسمعنا جميعاً ويرآنا جميعاً على اختلاف لغاتنا وتداخلها، فالله يسمع الخلق كلهم ويقدر على الخلق كلهم ﷻ، يعتقدون أن هؤلاء الأولياء لهم مقدرة ليست لأحد، والذي يهدم هذا الأمر موضوع الحياة البرزخية، والتفصيل الدقيق في بيان طبيعة الحياة البرزخية، وأومأت في الخُلاصات فيما تكلمت قبل قليل، والزيادات والتفصيلات، فإن شاء الله تعالى سأعمل على نشرها، سأنشر خُلاصتها، الحقيقة الكلام حولها كثير وكثير.

الشرك ما هو ضابطه؟ كل عبادة أحبها الله ورسوله، كل عبادة وردت في كتاب الله وسنة رسوله خاصة بالله، لا يجوز لك أن تصرفها إلى غيره، فإن صرفتها إلى غيره فقد أشركت شرك الألوهية، الله ﷻ يقول: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، أول أمر ورد في القرآن، انتبه ! {وَاعْبُدُوا اللَّهَ} أمر ، {وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} "ولا": للنهي، ذكرنا في (سورة البقرة) في هذا المسجد وطوّلنا في عشرات المواقف من (سورة البقرة) أن الأمر بالشيء نهي عن أضداده، وأن النهي عن الشيء أمر بأحد أفراده، {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، نهي عن الشرك بجميع أنواعه وأضداده، تأمل معي ! {وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} "شيئا": نكرة، والنكرة في سياق النهي تفيد العموم، لا يجوز أن نشرك بالله أي نوع من أنواع الشرك، والأنبياء قالوا: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ} قال أهل العلم "من شيء": استغراق في العموم كلمة "من شيء" أقوى في اللغة في الدلالة على العموم من قوله ﷻ : {شَيْئًا}، فـ"من شيء" "من" للتبعيض ، فيها استغراق للعموم، فالأصل في ذلك المنع، فدعاء الأموات على ما قررنا في موضوع الحياة البرزخية، سواء كانوا أنبياء، أو أولياء، أو صلحاء، فتوجيه الدعاء لهم كما قلنا

شرك، وهو تشمله الآيات الكثيرة في كتاب الله ﷻ، الله يقول: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ} مَن "مِن دون الله"؟ كل الخلق، الأنبياء، الأولياء، الصلحاء، الله يقول عنهم: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}، ماذا دلت هذه الاية؟ على أشياء من أهمها: أن الدعاء عبادة، وأن ما دون الله لا يسمع الدعاء من الأموات، تذهب تدعو قبر فلان تقول له: اغفر لي، وهو غافل لا يسمعك، لا نثبت سماع الميت من الحي، لكن له حياة، الشهداء لهم حياة، الأنبياء لهم حياة، ما بعد ذلك نسكت، لكن هو غافل، كما قال الله ﷻ {وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}، فلما يُبعثون ويقال لهم كانوا يعبدونهم فيتبرأ إلى الله ﷻ من عبادة هؤلاء، من الذين يتبرؤون؟ الموحدون ، الأنبياء، الصلحاء، ممن كانوا يدعونهم من دون الله ﷻ، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة فاطر: {إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ }، الآية دلت على ماذا؟ أن من دعا هؤلاء يكفرون بماذا ؟ ! بالشرك، إذن من يدعو الأموات ويطلب منهم الحاجات، وتفريج الكربات، هؤلاء يكفرون بشرككم، إذن هذا ماذا سماه الله تعالى في كتابه؟ {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ}، فهذا كفر بالشرك.

امتازت أمتنا عن سائر الأمم أن الله جل في علاه حمى بيضتها، وحمى التوحيد، فإن كانت بعض الأقوال، أو بعض الأفعال مشروعة عند من قبلنا على وجه التحية والاحترام، لا التعظيم والعبادة كالسجود، كما سجد أخوة يوسف ليوسف، فإن في شرعنا جاء فسدَّ الذريعة في كل قول وعمل وفعل، سدّ الذريعة التي تؤول إلى الشرك، فـ لعظم التوحيد، صان الله تعالى التوحيد وحماه وسدّ جميع الذرائع التي قد توصل إلى الشرك، وباب سد الذرائع باب معتبر معمول به، أفاض فيه وطوّل، وأفاد، وأجاب، وفصّل، فالإمام ابن القيم في كتابه البديع (إعلام الموقعين) لما ذكر سد الذرائع، بدأ يسرد النصوص من الكتاب والسنة، فعدّ وطوّل وسرد تسعة والتسعين دليلا، ثم بعد التسعة وتسعين قال: "نكتفي بهذا المقدار ولنكتفي على عدد أسماء الله سبحانه وتعالى، فصارت تسعة

وتسعين دليلا على سد الذرائع، فالمؤلف -رحمه الله- انتبه على موضوع خصوصية شريعتنا في سدِّ كل ذريعة توصل للشرك، وأول انخرام لمقام التوحيد متى يكون؟ يكون عند عدم التنبه والتيقظ إلى سد الذرائع الموصلة إلى الشرك، التهاون فيها في حقيقة أمره هو تهاون بالتوحيد.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: " وقد حمى النبى ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية تحقيقا لقوله تعالى :{إِيَّاكَ نَعْبُدُ} حتى نهى عن الصلاة في هذين الوقتين [لكونها] ذريعة إلى التشبه بعبّاد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسد ﷺ الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح، لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس، وأما السجود لغير الله، فقال ﷺ: "لا ينبغى لأحد أن يسجد لأحد إلا لله" "ولا ينبغى" في كلام الله ورسوله، إنما يستعمل للذى هو في غاية الامتناع كقوله تعالى:{ وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً}، وقوله تعالى: {وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ}، وقوله تعالى:{وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ ۞ وَما يَنْبَغِي لَهُمْ}، وقوله تعالى: {ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ}.

الشيخ -حفظه الله-: التوحيد سهل، وشريعتنا سهلة، وتمتاز بأنها أُمية، فجاءت الشريعة مراعية أفهام الناس جميعا، فالشريعة معقولة المعنى، والشريعة مضطردة لا يوجد فيها ما يخالف كلياتها، ولا ما يخالف التوحيد منها، فالشرع قضى على كل ذريعة توصل إلى الشرك، ابتداءً منه، ﷺ نهى النبي ﷺ عن إطرائه، وعن إنزاله فوق منزلته، فلمّا مر النبي ﷺ في بنات صغيرات يضربن الدف، فلمّا رأين النبي ﷺ قلن: "وفينا نبي يعلم ما في غدِ" من الذي يعلم مافي غد؟ ! الله، فزجرهنَّ النبي ﷺ، وقال لهن "قلن، ودعن وفينا نبي يعلم مافي غدِ" والنبي ﷺ قال: " لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم" ما معنى أطرت النصارى عيسى ابن مريم؟ عظَّموه وأنزلوه فوق منزلته، حتى قالوا عن عيسى عليه السلام إنه إله، فالنبي ﷺ سداً للذريعة نهى عن إطرائه، وكم من مرة قال

ﷺ: "إنما أنا عبد الله ورسوله"، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ الفرق بين محمد ﷺ وسائر الخلق هو الوحي، ولكن هو أفضل الخلق، وأفضل البشر، سيد ولد آدم ﷺ ، كذلك النهي عن بناء القبور حتى لا يعظمها الناس، فنهى عن بناء القبور ونهى النبي ﷺ عن تشييدها، وعن تجصيصها، وعن الكتابة عليها، حتى لا يتعلق فيها، فنهى النبي ﷺ عن تجصيصها وعن الكتابة عليها وعن إشهارها، ورفعها وكذلك الصلاة على القبور، والصلاة إلى القبور، هذا كله من باب سد حماية التوحيد حتى لايقع الناس في الشرك، وذكر المصنف -رحمه الله تعالى- موضوع الصلاة في الأوقات التي يعبد بها عبّاد الشمس والقمر، ويسجدون للشمس وللقمر، فنهانا النبي ﷺ عن الصلاة فيها، هذا النهي من أجل ماذا؟ للحفاظ على التوحيد، والخوف من الشرك، السجود عبادة أم ليست عبادة؟ من سجد لغير الله فعل شركاً على القاعدة التي قلنا بها ، وما الدليل على أن السجود عبادة؟ لا تحتاج إلى دليل ! المسألة واضحة، السجود عبادة من العبادات، قال الله ﷻ ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إيش يعني ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، يعني السجود عبادة، إن كنتم تعبدون الله، فاسجدوا له، وإذا ما أردتم التوحيد، فيكون السجود للشمس والقمر شرك بالله ﷻ ، ثبت في صحيح مسلم وقد شرحنا ذلك وأفضنا فيه من حديث عمر بن عبسة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال" إذا صليت الصبح فأقصر حتى تطلع الشمس، فإنها تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار" طبعا الكلام في غير الفريضة، فمن أخذته عيناه فاستيقظ بعد طلوع الشمس ولم يصلي الفريضة، الواجب عليه أن يصليها متى ذكرها، أما أن تتقصد بأن تصلي في وقت غروب الشمس، وفي وقت طلوع الشمس، فالشرع حرم ذلك، لماذا حرم الشرع ذلك ؟ حفاظاً على التوحيد، خوفاً من مشابهة عبّاد الشمس والقمر الذين يسجدون للشمس والقمر في هذا الوقت، لذا الله ﷻ كما ثبت في الحديث الصحيح: "يأخذ يوم القيامة الشمس والقمر ويكورهما في النار"، مآل الشمس مثل الكرة الصغيرة، الشمس التي تتسع ملايين مثل الأرض كما يقول علماء الفلك، لكن مآلها عند

الله مثل الكرة الصغيرة تُرمى في النار، -أعوذ بالله من النار، أسأل الله أن يرحمنا وأن يجيرنا من النار-، فإذن السجود عبادة بنص الآية وبقول النبي ﷺ، "لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا الله"، "لا ينبغي" و"ينبغي" على ماذا تدل ؟ وهما متضادان، يعني لا ينبغي عكس ينبغي، صنّف بعض أهل العلم في هذا الباب، ووقفت على مصنفين لم يطبعا بعد، المصنف الأول لـ (أحمد بن عبد الله بن بدر بن مفرج الدمشقي الشافعي)، المتوفي عام (822هـ) له مخطوط بعنوان: (نحو المبتغي لمعاني ينبغي) والعالِم الآخر الذي وقفت له على مخطوط في معنى "ينبغي" (الحافظ قطب الدين محمد بن محمد الخيضري الشافعي)، تلميذ (الحافظ ابن حجر)، المتوفى عام (894هـ) له مخطوط بعنوان: (بغية المبتغي في معنى قول الروضة ينبغي)، (الروضة) للإمام النووي وهو من الكتب المشهورة عند الشافعية، فذكر في بعض الأحاديث "ينبغي" والكلام طويل، ولكن أوجز قدر الاستطاعة، "ينبغي" في الشرع علام تطلق؟ على الفرض أو السنة أو القدر المشترك بين الفرض والسنة؟ "لا ينبغي" عكس "ينبغي" علام تطلق ؟ "لا ينبغي" اختلف أهل العلم باطلاقها على أربعة أقوال، القول الأول: يفيد الحرمة، وهذا الذي ذهب إليه الغزالي في (المستصفى) ومنهم من قال: يفيد الأمر، ومنهم من قال: يفيد القدر المشترك بين الحرمة والكراهة أي تارة في بعض الصور تكون حرام، وفي بعض الصور تكون مكروهة، القول الرابع وهو الصواب: "لا ينبغي" في الشرع يطلق على الممتنع شرعا وقدراً، الإمام ابن القيم أفاض واستقرأ الآيات والأحاديث التي وردت فيها "ما ينبغي" وأفاد أن "ما ينبغي" تدل على الممنوع الشرعي، والممنوع في قدر الله في كونه، نأخذ أمثلة: {وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا} هذا ممنوع في قدر الله وفي شرع الله، وقوله: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ}، هذا ممنوع في شرع الله وفي قدر الله، كان النبي ﷺ لا ينظم الشعر، {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۞ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ}، الممتنع في الشرع وفي القدر، وقال النبي ﷺ فيما أخرج الإمام البخاري: "كذبني ابن آدم وما ينبغي له" ما معنى "وما ينبغي له" ؟ الممنوع في شرع الله وفي قدر الله، وكذلك أخرج مسلم من حديث أبي موسى

الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله لا ينام وما ينبغي أن ينام"، القصة التي يذكرها بعض القُصَّاص ومدوَّنة في بعض الكتب، ونبَّه عليها (السَّكُوني) في كتابه (لحن العوام)، " أن موسى سأل ربه يا رب هل تنام ؟ فأوحى الله إليه: يا موسى خذ قارورتين واحملهما بيديك، فحملهما وبقي يحملهما وطال الزمن وبقي يحملهما، ثم نعس فنام، فضربت القارورتين بعضهما ببعض فسقطتا، فقال الله تعالى: لو كنت أنام لما بقي الكون"، هذه خرافة ما أنزل الله بها من سلطان، وليست بصحيحة، وتحمل الكفر ويستحيل على أنبياء الله تعالى فيما هو ممتنع في شرع الله وقدره، أن لا يعرفوه، فموسى وسائر الأنبياء يعلمون علماً يقينياً لا شك فيه أن الله جل في علاه{لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}، الله لا تأخذه "سِنة": الغفلة، السِّنة غير النعاس، النعاس يكون في العينين، والسِّنة تكون في الرأس، يعني السِّنة ما قبل الغفلة، يعني أنت قبل أن تبدأ تغفو وتصيبك السّنة قبلها يكون هناك ثِقل بالرأس وتشعر أنك بحاجة للنوم، فالله نفى عن نفسه السِّنة، لكن نفي الله عن نفسه السِّنه ليس مراداً لذاته، وإنما ليبيِّن أن الله حي قيوم، {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}، فنفى الله ﷻ عن نفسه السِّنه والنوم ليبيّن تمام حياته، وتمام قيومته على خلق الله ﷻ، فإذن ما معنى "وما ينبغي" ؟ الممتنع في حق الله ﷻ شرعا وقدراً.

نكتفي بهذا القدر لنأتي في درسنا القادم بإذن الله تعالى على أنواع أخرى من الشرك، ولا سيّما الألفاظ التي فيها الحلف بغير الله ﷻ، كما ذكرت لكم الحلف الذي كان سائدا عند المشركين كانوا يحلفون بآبائهم، ويحلفون بالكعبة، فهذا نصيب الدرس القادم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.